

التكفير



ظاهرة التكفير .. الأسباب والعلاج والآثار



مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

المحور ٣ - البحث ٤

الأسباب الفكرية للتكفير

(الجهل بالدين واتباع الهوى، التأويل الخاطئ،

مخالطة الجماعات المنحرفة والتلقي عنهم)

د. علي يعقوب

الجامعة الإسلامية بالنيجر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وآله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد.

فلقد أصبحت مشكلة التكفير والتطرف والإرهاب من القضايا المهمة والخطيرة على مختلف المجالات، وبخاصة في وسط الشباب المسلم، وباتت تهدد الأمن والسلم والاستقرار في العديد من بقاع العالم، وباتت تهدد كيان بعض المجتمعات في وحدتها الوطنية، وتفجر الصراعات التي من شأنها تعطيل حركة المجتمع، وعرقلة التنمية والتطور العلمي.

فالتكفير ظاهرة تستحق التوقف والتأمل والدراسة؛ لمعرفة أسبابها ودوافعها ونتائجها على الفرد والمجتمع المعاصر، ولا يخفى على أحد أن العديد من الجماعات الإسلامية المتطرفة تكفر كل من لا ينتمي إليها حكومة وشعبا، إن أسباب تطرفها وتكفيرها للناس كثيرة، ومن أهمها: الجهل بحقيقة الإسلام واتباع الهوى، والتأويل الخاطئ لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وسوء فهمها، والمخالطة لحاملي الأفكار المنحرفة، وعدم التلقي من العلماء الفاهمين فهما صحيحا للكتاب والسنة والاعتماد على الآراء والنظريات، وكان نتيجة ذلك التطرف في الفكر وتكفير الناس، وإخراجهم من الملة واستحلال دمائهم، بناء على الباطل.

وهذا بحث بعنوان: الأسباب الفكرية للتكفير

وقد قسمته إلى مقدمة وثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: الجهل بالدين واتباع الهوى، وذكرت فيه أسباب، ومنها الجهل بأحكام الشريعة، وهو من أهم أسباب تكفير المسلمين قديما وحديثا، وكذلك واتباع الهوى وهو سبب من أسباب انتشار

التكفير وسفك دماء الأبرياء.

- المبحث الثاني: التأويل الخاطئ للنصوص ، إن الشريعة قد استوعبت بنصوصها كل قضايا الإنسان وحاجاته الضرورية الفردية منها والاجتماعية والعالمية ، والأحكام الشرعية المتعلقة بحياة الفرد الاجتماعية وغيرها ، تستبطن من ظواهر النصوص أو معانيها ، فمنها ظاهرة صريحة الدلالة ، ومنها غير ظاهرة وخفية ، وقد أدى هذا إلى وضع ضوابط لفهم النصوص فهما صحيحا ، حتى لا تحرف عن مقاصدها الصحيحة ، فيؤدي إلى سوء فهمها ، وإن التأويل الخاطئ للنصوص الشرعية ، ينتج عنه أفكار متطرفة تؤدي إلى تكفير المسلم.
- المبحث الثالث: مخالطة الجماعة المنحرفة والتلقي عنهم: وذكرنا فيه أهمية تلقي العلم على أيدي العلماء الريانيين ، وليس من أنصاف العلماء ، الذين بضاعتهم مزجاة في العلوم الشرعية واللغوية ، وأهمية اختيار الصحبة الحسنة للأبناء وبخاصة في مرحلة المراهقة. ثم الخاتمة التي بينا فيها أهم نتائج البحث والتوصيات.

المبحث الأول الجهل بالدين واتباع الهوى

إن من أهم أسباب تكفير المسلمين ، قديماً وحديثاً الجهل بالدين ، واتباع الهوى ، وهما من أسباب انتشار التكفير وسفك دماء الأبرياء من أبناء الأمة ، إن الجهل بالدين من العوامل التي تجر الإنسان إلى أخطاء كثيرة ومتعددة ، ومن أهمها الجهل - وليس المقصود هنا الأمية - إنما المقصود عدم العلم أو فقد العلم ، ونقص التصور الصحيح الكامل للمسألة التي كفر فيه من كفر ، أو سوء التفكير ، ومعلوم أن سوء التفكير يؤدي إلى التكفير.

إن ضلال الخلق على كثرة صورته وأنواعه ، وتعدد مظاهره وأشكاله سواء في الأفكار والتصورات ، أو الأخلاق والسلوكيات ، أو الأعمال والممارسات ، يعود في الحقيقة إلى الجهل أو واتباع الهوى ، ولو تأملت في أحوال المفرطين والمبتدعة والغلاة ، لوجدت أنهم إنما أتوا من قبل الجهل أو واتباع الهوى ، وقلة الفهم وضعف البصيرة في الدين ، فإن الإنسان يؤتى من قبل جهله ، حيث يظن أن فعله حسن ومشروع ، وأنه مأجور ، مثل من يقتل الأبرياء ، ويكفرهم وهو يظن أن عمله هذا قرينة يرفعه الله بها ، ويجهل أن الظلم حرام في حق كل أحد^(١) ، قد ثبت بالاستقراء أن كل خير في العالم لا يكسب إلا بالعلم ، وكل شر فيه لا يكسب - أيضاً - إلا بالجهل ، فالجهل سبب كل رذيلة ؛ لأن الجاهل في ظلمة شديدة لا يرى شيئاً ألبتة ، ومن أسوء الجهل الجهل بالدين ، ومن أكبر أسباب الجهل بالدين الجهل بالقرآن

(١) د. عبد العزيز بن فوزان الفوزان، أثر العلم الشرعي في مواجهة العنف والعدوان، على موقع منتدى الوسطية للفكر والثقافة.

الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والسنة النبوية الشريفة.

وقد عرّف الجرجاني الجهل بقوله: "الجهل هو: اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه"^(١) فقد قسم العلماء الجهل إلى عدة تقسيمات ، ويهمننا في هذا البحث ثلاثة تقسيمات: التقسيم الأول: تقسيمه إلى جهل بسيط ، و جهل مركب من حيث إدراك الأشياء فالبسيط: هو عدم العلم عما من شأنه أن يعلم ، أما المركب: فهو اعتقاد جازم غير مطابق للواقع^(٢).

التقسيم الثاني: تقسيم ابن القيم: حيث قال - رحمه الله - (الجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع ، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه فكلاهما جهل لغة وعرفا وشرعا وحقيقة)^(٣).

التقسيم الثالث: تقسيم الراغب الأصفهاني - رحمه الله تعالى - حيث ذكر أن الإنسان في الجهل على أربعة منازل:

- ١- من لا يعتقد اعتقادا لصالحا ولا طالحا وأمره في إرشاده سهل إذا كان طيعا.
- ٢- معتقد لرأي فاسد لكنه لم ينشأ عليه ولم يترب به ، فاستنزاه عنه سهل وإن كان أصعب من الأول.
- ٣- معتقد لرأي فاسد قد ران على قلبه وتراءت له صحته فركن إليه بجهله فلا سبيل إلى تنبيهه وتهذيبه.
- ٤- معتقد اعتقادا فاسدا عرف فسادا وتمكن من معرفته ، لكنه اكتسب

(١) علي بن محمد الجرجاني ، التعريفات ، تحقيق محمد المرعشلي ، ط١ دار النفائس ، بيروت ص ١٤٢.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٢.

(٣) شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية ، مدارج السالكين ط١٩٨٨م دار الفكر، بيروت

كرسيا لرياسته ، فهو محام عليها فيجادل عليها بالباطل؛ ليدحض به الحق، ويذم أهل العلم؛ ليجر إلى نفسه الخلق^(١).

وجهل جماعة التكفير قديما وحديثا ، ينطبق عليه كل التقسيمات السابقة؛ لأن المبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طابع من يغلب عليه الجهل المركب ، والتأويل الفاسد للنصوص الشرعية ، والاعتقاد لرأي فاسد ران على القلب ، حتى يرى من يعتقده أنه الصحيح ، ثم الجهل بأحكام الشريعة ومقاصدها ، إن الدارس لحال الخوارج الذين تولوا وزر تكفير الأمة قديما سيخلص إلى أن من أهم صفاتهم الجهل ، وهذا الجهل ينطبق على أضرابهم الذين أتوا في آخر الزمان ، وقد بين لنا النبي - ﷺ - صفاتهم ، فقال: (يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان ، سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، فأينما لقيموهم فاقتلوهم ، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة)^(٢)، ووصفهم - ﷺ - بـ "حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام" وحديث السنن في الغالب أقرب إلى الجهل والطيش ، والتسرع وعدم الروية ، ومحل للفساد عادة ، وقوله - ﷺ - " سفهاء الأحلام" دليل على ضعف عقولهم ، وغلبة الجهل عليهم ، مع كثرة قراءتهم للقرآن الكريم ، لأنهم لا يعوناه ، ولا يفقهون مواظله ونذره ، وأحكامه وحدوده^(٣)؛ لأنهم أخذوا بظواهر النصوص القرآنية ، دون فقه تفسير الصحابة والسلف الصالح ، واتبعوا المنهج الحرفي في تفسير القرآن والاستنباط منه ، واعتمدوا على فهمهم ، قال ابن تيمية:

(١) أبو القاسم، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ، الذريعة إلى مكارم الشريعة ، تحقيق أبو اليزيد العجمي ، ط٢ ١٩٨٨م دار الوفاء ، المنصورة ، مصر ، ص ٢٢٢١.

(٢) صحيح البخاري ، (حديث رقم: ٣٦١١) ط٢ ١٩٩٩م مكتبة دار السلام ، الرياض ، وصحيح مسلم (حديث رقم: ١٠٦٦) مكتبة دار السلام ، الرياض.

(٣) مؤتمر الإرهاب بين تطرف الفكر وفكر التطرف ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٣١هـ المحور الأول ، القسم الأول ، ص٢١٥ بتصرف.

(فالخوارج كانوا يتبعون القرآن بمقتضى فهمهم)^(١) واستباحوا دماء من خالفهم ، وكانوا يعتمدون في ذلك على تفسيرهم بمقتضى فهمهم لقوله تعالى - : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ لقوله تعالى (المائدة: ٤٤) وقد تكررت هذه الآية وجاءت خاتمها بألفاظ ثلاثة: ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (المائدة: ٤٥) ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (المائدة: ٤٧) فمن جهل الذين يحتجون بهذه الآية في اللفظ الأول: ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المائدة: ٤٤)، أنهم لم يلموا على الأقل ببعض النصوص التي جاء فيها لفظ الكفر، فأخذوها على أنها تعني الخروج من الدين ، وأنه لافرق بين الذي وقع في الكفر، وبين الكفار، وأصحاب الملل الخارجة عن ملة الإسلام ، ويعممون هذا الفهم المبني على الجهل بالكتاب والسنة في تفسير الكفر على كثيرين ويكفرونهم ، وبخاصة الحكام ، وبعض العلماء الذين لهم صلة بالحكام ، لسكوتهم على كفر الحكام كما يزعمون ، قال الشيخ ناصر الدين الألباني - رحمه الله - : (سمعت من بعض أولئك الذين كانوا من جماعة التكفير، ثم هداهم الله - عز وجل - قلنا لهم: ما بالكم مثلاً تكفرون أئمة المساجد ، وخدمة المساجد وما بالكم تكفرون أساتذة العلم الشرعي في المدارس الثانوية مثلاً؟ قالوا لأن هؤلاء رضوا بحكم هؤلاء الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله)^(٢) ، وكذلك الشأن مع اللفظين الآخرين: ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، و ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٣) إن الجهل بالقرآن وتفسيره هو سبب انحراف الخوارج ، وخروجهم على الحكام ، وتكفيرهم للمسلمين ، وكان سندهم

(١) أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية)، مجموع الفتاوى ، طبعة دار المعارف ٢٨ / ٤٨٣.

(٢) محمد عبد الله الحسين ، فتنة التكفير والحاكمية ، ط ١٤١٦ هـ مطبعة سفير الرياض ، ص: ٣٤.

(٣) انظر: مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر ، عبد الرحمن اللويحق ، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م

في الخروج على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٥٧) فالخوارج فسروا الآية تفسيراً خاطئاً ، وخرجوا عليها قاعدة ، وهي: لا حكم إلا لله ، أولاً حاكم إلا الله ، وذلك يعني نفي أي سلطة بشرية من شأنها أن تهيمن على النص القرآني فتبطله أو تعطله ، وهذا ما أدى ببعضهم إلى القول: "من حاكم إلى مخلوق فهو كافر" ، وقولهم: "تحكمون في أمر الله الرجال لا حكم إلا لله"^(١) وسبب خطئهم الجهل بحقيقة النصوص القرآنية ، وتفسيرها تفسيراً خاطئاً مع كثرة قراءتهم له ، ولكنها لا تتجاوز حناجرهم ، أي إنما هي مجرد قراءة ، ولا تصل إلى قلوبهم ، حتى يفهموه فهماً صحيحاً ، وليس لهم مرجعية موثوقة بها من أهل العلم بل يغلب على جلهم الجهل والسذاجة في التعامل مع نصوص القرآن ، والسطحية في تفسيره ، فكان حليفهم الشذوذ والانحراف عن الجادة ، والتشدد في غير محله ، وتكفير المسلمين لأمر بسيط واستحلال دمائهم ، وهذه الآيات فسرها السلف بأن هذا الكفر ليس ككفر من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وهذا مروى عن ابن عباس ، وقال ابن عيينة: ليس كفراً ينقل عن الملة ، ونقل مثل هذا القول عن طاووس وعطاء بن أبي رباح^(٢) إن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً ينقل عن الملة ، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة ، وذلك بحسب حال الحاكم ، فإن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب وأنه مخير فيه ، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله ، فهذا كفر ، وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله ، وعدل عنه لرشوة دفعت إليه ، أو عداوته للمحكوم عليه ، أو

(١) انظر: ابن الجوزي ، تلبيس إبليس بتحقيق أحمد عثمان المزيدي ١٧٧/١ ، والحاكمية في الفكر الإسلامي لدكتور حسن لحسانة ، كتاب الأمة العدد ١١٨ ، ١٤٢٨هـ ص ١١٦ .
 (٢) ابن بطة ، الإبانة ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م دار الراجحة للنشر والتوزيع الرياض ، ٧٢٣/٢ .

قربته أو صداقته للمحكوم ، مع اعترافه أنه مستحق للعقوبة فهو عاص^(١).
ومن جهل بعضهم: تفسيرهم (لا إله إلا الله) بأنه لا أحد يستحق الطاعة إلا
الله فمن أطاع غير الله فقد كفر بزعمهم ، وكفروا كل المسلمين الذين
خضعوا لقوانين الحكومة البريطانية أثناء استعمارها لشبه القارة الهندية ؛ لأن
طاعة القوانين عندهم عبادة ، ولا يجوز صرفها لغير الله ، ونسوا قوله - تعالى - :
﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا
فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (التحریم: ١١)
ولاشك أن امرأة فرعون عاشت مطيعة لأوامر وقوانين وحكومة فرعون ، ومع
ذلك جعلها الله مثلا للمؤمنين ، وكذلك نبي الله يوسف الذي قبل العمل تحت
الملك الكافر^(٢).

ومن ذلك - أيضا - ما كان من بعض الجماعات في غرب إفريقيا التي
تكفر كل فئات المسلمين بدعوى أنهم خضعوا للحكام الكفار ، وتعاملوا
معهم ، وأطاعوا أوامرهم ، واعتزلوا في قرى خاصة بهم ، ولا يدخلون أبنائهم
في المدارس العربية أو غيرها؛ لأن الدراسة فيها - حسب رأيهم المنحرف - على
أيدي أساتذة كفار حرام ؛ لأنه لا يجوز للمسلم أن يدرس عند الكفار ،
وكذلك لا يأكلون ذبيحة إخوانهم المسلمين بدعوى كفرهم ، و يقتلون من
اقترب من قراهم ، ويعتبرون ذلك من الجهاد في سبيل الله ، ولا يتزوجون من
جيرانهم ولا يزوجونهم ، وكان كبيرهم يحمل لقب أمير المؤمنين ، وقد
تناقص عددهم مع انتشار الوعي الإسلامي الصحيح بفضل الله تعالى ، ثم
بفضل المتخرجين من الجامعات الإسلامية ، وبخاصة الجامعة الإسلامية

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ب تحقيق وتعليق د. عبد الله التركي والشيخ شعيب

الأرنؤوط ، الطبعة الثانية ٢٠٠٣م مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٣/٢.

(٢) انظر التحذير من فتنة الكفر والتكفير ، محمد جميل زينو ص ٨٠ و ٨١ بتصرف.

بالمدينة المنورة.

وإن من أعظم الفتن التي يفتن الشيطان بها العباد فتنة تزوين الباطل ولبس الحق به واتّباع الهوى ، وجميع المعاصي والبدع إنما تنشأ عن تقديم هوى النفس على الكتاب والسنة ، وأصحاب البدع إنما أحدثوا بدعهم بسبب اتّباعهم لأهوائهم المخالفة لشرع الله ، ولهذا سمو أهل الأهواء؛ (لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الاقتدار إليها ، والتعويل عليها حتى يصدروا عنها ، بل قدموا أهواءهم ، واعتمدوا على آراءهم ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك^(١) . وصاحب الهوى يعطف كلام الله ورسوله على ما يقتضيه هواه مثل ما نرى من أهل الأهواء المعاصرين.

ولقد وقع في هذا الشرك الخطير كثير من الناس ، وتمكن الشيطان منهم تمكنا يظنون معه أنهم بمنأى عنه ، وعلى صلة وثيقة بربهم ، وما ذلك إلا بسبب التباس الحق بالباطل باتّباع الهوى ، وقد أخبر الله تعالى أن إتباع الهوى يضل عن سبيل الله فقال: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (ص: ٢٦)

لقد بين الله تعالى أن أصل ضلال الضالين إنما هو بسبب اتّباع الهوى والظن فقال: ﴿ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (النجم: ٢٣) ، وإن اتّباع الهوى من أسباب الانحراف عن الحق ؛ لأنه يؤدي إلى تحريف الأدلة عن مواضعها ، وكتمان الحق ، واتّباع المتشابه من النصوص ، وكثير من الطوائف المكفرة للمسلمين يتبعون أهوائهم في التكفير ، بتحريف النصوص إلى ما يوافق أهوائهم.

مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

(١) الشاطبي ، الاعتصام ، تحقيق سليم الهلالي ، ط ١٩٩٢م دار ابن عفا للنشر والتوزيع ، الخبر ، السعودية ، ٦٨٣/٢ .

المبحث الثاني

التأويل الخاطئ للنصوص: لعل من أهم ما أوقع بعض المسلمين في فتنة التكفير

الفهم الخاطئ لبعض النصوص الشرعية والجهل بدلالاتها الصحيحة ، إذ رأى هؤلاء أن النصوص الشرعية التي وصفت بعض أصحاب المعاصي بالكفر ، أو نفت عنهم اسم الإيمان ، أو أخبرت باستحقاقهم الخلود في النار ، ففهم هؤلاء أنها تشهد على أصحابها بالكفر ، وأن هذا الكفر هو الكفر الأكبر المخرج من الملة ، فكفروا بفهمهم المغلوط عموم المسلمين^(١) بسبب ارتكاب بعض المعاصي ، - مثل تكفيرهم للحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله دون تفصيل ، وكذلك المحكومين؛ لأنهم رضوا بذلك ، وكفروا العلماء ؛ لأنهم لم يكفروا هؤلاء - ويقول أحدهم: (إن كلمة (عاصي) ، هي اسم من أسماء الكافر ، وتساوي كلمة كافر تماما)^(٢) ثم علل ذلك بتعليل يدل دلالة قاطعة على سوء فهم النصوص الشرعية واتباع الهوى حيث قال: (ومرجع ذلك إلى قضية الأسماء ؛ إنه ليس من دين الله أن يسمى المرء في آن واحد مسلما وكافرا)^(٣)!! وذلك بسبب سوء فهمهم لآيات الوعيد في القرآن الكريم ، من ذلك استدلالهم بقوله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ (الجن: ٢٣) وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (النساء: ١٤)

(١) منقذ محمود السقار، التكفير وضوابطه ، رابطة العالم الإسلامي بدون تاريخ ، ص ٣٣.

(٢) اللويحق ، المصدر السابق ، ١١٥/١.

(٣) المصدر السابق ، ١١٥/١.

وقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة: ٨١) وعلى مقتضى فهمهم السقيم لهذه الآيات الواردة للوعيد ، فإن كل مرتكب معصية ولو كانت واحدة كافية لخلوده في النار. وكذلك استدلوا بالأحاديث التي حكم النبي - ﷺ - بتحريم الجنة أو الحكم بالنار لبعض أصحاب المعاصي ، في تكفير مرتكبي المعاصي ، ومنها قوله - ﷺ - : (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه) وقوله - ﷺ - : (أبى عبد أبق من مواليه فقد كفر، حتى يرجع إليهم)^(١) وقوله - ﷺ - : (من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام)^(٢) وأمثالها كثيرة في السنة النبوية ، ففهم منها من يؤول تأويلا خاطئا للنصوص الشرعية أن أصحاب المعاصي سيدخلون النار ويخلدون فيها؛ لأن الجنة عليهم حرام. ومن الأصول المقررة عند أهل السنة والجماعة عدم تكفير مرتكب المعصية ما لم يستحلها قال الطحاوي: (ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنوب ما لم يستحلها)^(٣) ، وقال النووي: (اعلم أن مذهب أهل الحق: أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنوب)^(٤) .

قد وضع العلماء أصولا ينبغي الرجوع إليها في فهم مثل هذه النصوص منها:

١- تفريق بين ما ورد في القرآن الكريم من إطلاقات الكفر والسنة النبوية ، إذ من عادة القرآن أن يطلق وصف الإيمان على أكمل المؤمنين صفات ، وكذا أطلق الكفر على أقبح الكافرين فعلا ، فوصفه بالكفر لا يحتمل إلا الكفر الأكبر، وعليه فقد تقرر عند العلماء التفريق بين

(١) رواهما مسلم (حديث رقم: ٦٣ ورقم: ٦٨).

(٢) متفق عليه (البخاري حديث رقم: ٤٣٢٧ ومسلم حديث رقم: ٦٣).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٥٥.

(٤) الإمام النووي ، شرح صحيح مسلم ، ط ٣ ١٩٧٨م دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، (١/١٥٠).

إطلاقات الكفر في القرآن ، وتلك التي في السنة النبوية .
 ٢- أن النصوص قد شهدت بالإيمان للموحدين ، وإن ارتكبوا المعاصي فإن ذلك لا يخرجهم عن الإيمان ، بل يضعهم تحت المشيئة الإلهية ، قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٨) فكل المعاصي المذكورة في الأحاديث هي دون الشرك بالله ، وهي تحت المشيئة ، ففاعلها إذا ليس بكافر.
 ٣- أن المراد بهذه النصوص التغليظ والزجر ، أي أنها من جنس أفعال الكفار ، أو أريد أن استحلال هذه الذنوب من الكفر الأكبر ، لا مجرد ارتكابها. قال ابن القيم: (والقصد أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر ، فإنها ضد الشكر الذي هو العمل بالطاعة.
 ٤- أن هذا الكفر كفر عملي وهو الموجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود في النار ، وهذا النوع يتناول جميع المعاصي ، وليس الكفر الاعتقادي الموجب للخلود في النار.
 وبهذا فإن مرتكب الكبيرة لا يكفر ، بل هو باق على أصل الإيمان ، وإن كان ناقص الإيمان ، قال ابن أبي العز: (إن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية - كما قالت الخوارج - إذ لو كان كفرا ينقل عن الملة ، لكان مرتدا يقتل على حال ولا يقبل عفو ولي القصاص ، ولا تجرى الحدود في الزنى والسرقه وشرب الخمر ، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام ، ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ، ولا يدخل في الكفر ، ولا يستحق الخلود مع الكافرين)^(١) ، والذي يرصد أقوال وآراء جماعة التكفير قديما وحديثا ،

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ٤٤٢/٢.

يرى أنهم أتوا من قبل جهلهم وقلة علمهم واتباعهم للهوى ، ثم تأويلهم الخاطئ للنصوص الشرعية ، وكأنهم لم يقرؤوا نصوص الكتاب والسنة التي تحذر من الوقوع في أعراض المسلمين ، وسفك دمائهم ، قال - ﷺ - : (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)^(١) . وقوله : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم)^(٢) . والنصوص في حرمة دماء المسلمين وأموالهم كثيرة بل حتى غير المسلمين نحو : (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما)^(٣) . ولكن الفهم الخاطئ والجهل أدى إلى سفك دماء الأبرياء بدعوى أنهم كفار ، ولا بد من اتباع الضوابط الشرعية لفهم النصوص الشرعية فهما صحيحا ، حتى لا تحرف عن مقاصدها الصحيحة ، الذي يؤدي إلى سوء فهمها ، والتأويل الخاطئ للنصوص الشرعية الذي ينتج عنه أفكار متطرفة تؤدي إلى تكفير المسلم ، ثم من بعده التفجير .

(١) رواه مسلم (حديث رقم: ٢٥٦٤٩) .

(٢) متفق عليه (البخاري (حديث رقم: ٩) ومسلم (حديث رقم: ٤٠) .

(٣) رواه البخاري (حديث رقم: ٣١٦٦) .

المبحث الثالث

مخالطة الجماعة المنحرفة والتلقي عنهم

من المعلوم أن (الجهل يزول عادة بالعلم الصحيح، ولهذا رجع كثير من الخوارج الأوائل عن بدعتهم بالمناظرة، فرجع على يد ابن عباس - رضي الله عنهما - لما ناقشهم في مجلس واحد أكثر من أربعة آلاف إنسان، وفي عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، نوقشوا فرجع منهم ما يزيد على ألف إنسان في مجلس واحد، ولهذا فالجهل من أسهل الأسباب علاجا؛ لأنه سرعان ما يزول بالعلم، وبيان الدليل^(١) وجماعة التكفير مصابون بمرض الجهل، وسبب جهلهم أنهم تركوا تلقي العلم عن العلماء، وتلقوه على الأصاغر الذين وصفهم - ﷺ - بحدائث الأسنان، وسفاهة الأحلام، فتصدروا للأمر العظام دون الرجوع إلى أهل العلم الموثوق بعلمهم (والناظر في تاريخ الأهواء والفرق يجد أن من أعظم أسباب ظهورها: ترك التلقي عن العلماء، والأخذ عن الأصاغر ممن ليس لهم باع يُعرف في العلم، فهم يتلقون العلم عن الأصاغر، ويبتعدون عن الأكابر؛ لأنهم رُبوا على ألا يثقوا إلا في اجتهادات أبناء مذهبهم، مهما كان حجم الآخرين، وإحاطتهم بالعلوم والمقاصد الشرعية^(٢)) وهذا راجع إلى عدم اعتبار العلماء، وعدم اعتبارهم يقابله الأخذ من غير الأكفاء، والأخذ من غير الأكفاء يعني الضلال؛ لأن فاقد شيء لا يعطيه، والمتلقي من غير العلماء غالبا ما يقع في الانحراف، (والمأمل في المؤلفات والكتب والآراء التي يتبناها المتهمون بالغلو يجد أنها صادرة عن جهلة متعلمين

(١) مجلة البيان، حقيقة التطرف، العدد: (٦٧) ص ١٦-١٧.

(٢) د. عبد القادر عطا صوفي، الغلو في الدين ومجاوزة الوسطية الأسباب والمظاهر، مؤتمر الإرهاب بين تطرف الفكر وفكر التطرف، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ٢٠٠٩م المحور الأول، القسم

الثاني، ص ١٦.

ليس لهم حظ من العلم ، كما أن نقص العلماء في المجتمع المسلم ساعد في رفع رؤوس الجهال وتصديهم لقضايا الأمة العامة مما ذر قرون الفتنة في الأمة وزاد بلبلة الناس وإفساد عقيدتهم^(١) ، ويرى عبد الرحمن اللويحق: أن نقص العلماء هو الذي دفع كثير من الشباب إلى محاولة تثقيف أنفسهم فتتلمذوا على الكتب دون معلم يأخذوا عنه^(٢) ، وهذا رأي صحيح ، ولكن لو نظرنا إلى المجتمعات التي ظهرت فيها جماعات التكفير ، لا تشكو من نقص العلماء ، بل القضية راجعة إلى التربية في الأسرة والمدرسة ، واختيار الصديق الصالح للأبناء ؛ لأن كثيراً من الشباب قد انجرفوا وراء التيارات المنحرفة الضالة ، بسبب غياب دور الأسرة والمدرسة في التربية الصحيحة ، والأسرة هي عماد المجتمع ، وركيزته الأساسية ، وهي المحصن الأول للشباب ، ومربيتهم على الاستقامة والاعتدال والرفق ، ونبذ التطرف الذي يؤدي إلى تكفير المسلمين ، وهي كما قال بعض الباحثين: بمثابة القلب النابض في الجسد ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، فالأسرة إذا كانت تعاني من الجهل والتخلف وتعيش في تفكك ، فإن ذلك يؤدي بالتأكيد إلى نشأة أشخاص غير أسوياء ، ومن السهولة إغواؤهم واستدراجهم إلى غيابة الإرهاب ، بخلاف إذا كانت الأسرة قوية متماسكة ، وقائمة على الدين ، فإنها ستقوم بدور ريادي في تكوين النشء^(٣) ، ولا يخالط أو يصاحب الفئة الضالة؛ لأن تأثير الأسرة في سلوك النشء أشد من تأثير جماعة اجتماعية أخرى ، وإذا فقدت المدرسة الأولى - مدرسة الأسرة - وتربيتها التحصيلي - وذلك إذا كانت الأسرة مفككة يسودها الجهل والاضطرابات - ، فإن ذلك يعني انهيار

(١) اللويحق ، المصدر السابق ٥٥٤/٢ .

(٢) المصدر السابق ، ٥٥٤/٢ .

(٣) محمد المهدي ، دور الأسرة في تحصين أبنائها ضد التطرف والإرهاب ، مؤتمر الإرهاب بالجامعة

الإسلامية بالمدينة المنورة ٢٠٠٩م ، المحور الرابع ، ص١٢ بتصرف.

دورها في التربية ، ويؤدي ذلك إلى ضعف الرقابة الأسرية على الأبناء ، وبالتالي انحرافهم وسهولة استغلالهم من قبل الفئات الضالة التي تلقفهم وتوجيههم وفق أهوائها وأفكارها ؛ لأن الرقابة الأسرية كلما ضعفت ، فإن النشء سيختلطون ويصاحبون الجماعات المنحرفة وغالبا ما يغرونهم بالتمسك والالتزام بالدين ، وفساد العلماء ؛ لأنهم يكتمون الحق عن المجتمع ، ولا ينكرون على الحكام جهارا نهارا ، مثل إنكار أبي ذر الغفار على معاوية بن أبي سفيان ، وكذلك إنكاره على عثمان بن عفان - رضي الله عنهم - ولا يأمرهم بالمعروف ولا ينهون عن المنكر المتفشي بين أفراد المجتمع ، ولا يطبقون شرع الله في أرضه ، وهذا الشاب الذي بضاعته في العلم مزجاة ، وليس له حصانة علمية من أسرته أو مدرسته ، وقد صور له العلماء بأنهم عملاء الحكام ، فإنه سينساق وراء هذه الأقوال والآراء ، وبخاصة أن مرحلة الشباب مرحلة عاطفة جياشة ، وحماسة شديدة وخصوصا في مقتبل الالتزام والاستقامة.

إن التربية الصالحة للأبناء من الأسرة أو المدرسة هي التي تحصن شباب المسلمين ضد التطرف والإرهاب ، وبها يتم القضاء على الأفكار المنحرفة ، وكذلك يجب اختيار الأصدقاء الصالحين لهم وأن لا يترك لهم الحبل على الغارب في اختيار الأصدقاء ، والحذر من الانجرار وراء العواطف المخالفة لنصائح العلماء ، والحذر كذلك من التحدث أمامهم بالأمور التي تشوش أذهانهم^(١) ، وإيجاد المراكز التي تعلمهم المنهج الصحيح ، حتى لا تفقد خيرة شبابنا بناء مستقبل الأمة الإسلامية.

(١) انظر، الإرهاب في ضوء الكتاب والسنة تشخيص الداء ووصف الدواء ، الشيخ عبد الرحمن السديس المؤتمر السابق، المحور الثالث ص ٢٥٧ بتصريف.

الخاتمة

وقد توصلنا من خلال هذا البحث إلى النتائج الآتية:

- أن الجهل واتباع الهوى من الأسباب الفكرية لانحراف جماعة التكفير، عن المنهج الصحيح
- أن التأويل الخاطئ للنصوص الشرعية وراء انحراف جماعة التكفير.
- أن عدم التلقي من العلماء الراسخين من أسباب الانحراف.
- أن إهمال التربية الأسرية من أسباب انحراف الشباب.
- عدم اختيار الأصدقاء الصالحين للأبناء من أسباب الانحراف لدى الشباب.
- أن الحوار مع المنحرفين يؤدي إلى هدايتهم ورجوعهم عن الانحراف.

ونوصي بالآتي:

- بفتح باب الحوار مع الفئة المنحرفة.
- الاهتمام بالتربية الأسرية ، والمدرسية.
- اختيار العلماء الراسخين لتعليم الشباب في المساجد وبخاصة في الإجازات والعطل.
- جمع الآيات والأحاديث التي يستدل بها الفئة المنحرفة ، وشرحها على المنهج الصحيح ، وتوزيعها على المدارس والمساجد ، ومركز تجمع الشباب.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص.
- إبراهيم بن محمد أبو إسحاق (الشاطبي)، الاعتصام، تحقيق سليم الهلالي ط ١ ١٩٩٢م، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، الخبر، السعودية.
- ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق د. عبد الله التركي والشيخ شعيب الأرنؤوط الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٣م.
- أبو عبد الله، عبد الله بن محمد بن بطة العكبري، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، تحقيق رضا بن نعيان، الطبعة الأولى، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٨م.
- أحمد عبد الحليم (ابن تيمية) مجموع الفتاوى، طبعة دار المعارف.
- د. حسن لحسانة، الحاكمية في الفكر الإسلامي، كتاب الأمة (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة دولة قطر)، العدد ١١٨، ١٤٢٨هـ.
- الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني) الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق أبي اليزيد العجمي، م، دار الوفاء، المنصورة، مصر.
- عبد الرحمن بن علي أبو الفرج (ابن الجوزي)، تلبس إبليس تحقيق د. أحمد عثمان المزيد، الطبعة الأولى، دار الوطن للنشر، الرياض، ٢٠٠٢م.
- د. عبد الرحمن اللويحق، مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م (بدون ذكر دار النشر).
- د. عبد العزيز بن فوزان الفوزان، أثر العلم الشرعي في مواجهة العنف والعدوان، موقع: منتدى الوسطية للفكر والثقافة.
- علي بن محمد (الجرجاني) التعريفات، تحقيق محمد المرعشلي، ط ١، ٢٠٠٣م، دار النفايس، بيروت.
- مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، لندن، العدد السادس عشر.
- مسلم بن الحجاج القسيري، الجامع الصحيح مع شرح النووي، ط ٢، ١٩٩٩م،



- مكتبة دار السلام الرياض.
- محمد بن أبي بكر (ابن القيم الجوزية) مدارج السالكين، طبعة ١٩٨٨م ، دار الفكر، بيروت.
 - محمد بن إسماعيل (البخاري) الجامع الصحيح ، ط٢ ، ١٩٩٩م، مكتبة دار السلام، الرياض.
 - محمد عبد الله الحسين ، فتنة التكفير والحاكمة ، ط١ ، ١٤١٦هـ، مطبعة سفير، الرياض.
 - منقذ محمود السقار، التكفير وضوابطه، رابطة العالم الإسلامي، بدون تاريخ.
 - مؤتمر الإرهاب بين تطرف الفكر وفكر التطرف، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٣١هـ.
 - يحيى بن شرف (النووي) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، ط٣ ، ١٩٧٨م دار الفكر، بيروت ، لبنان.